كُفرُ الذُّبابة ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال كَليلةُ(١) وهو يَبسطُ دِمنةَ ويحذّرُه ويقضي حقَّ الله فيه ؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغرورُ وزهاء النصر ، وظهر منه الجفاءُ والنيلطة ، ولقيَ الثعالبُ من زَيغه وإلحاده عنتاً شديداً :

... واعلم يادمنة أن مازعمتَه من رأيك تاماً لا يعتريه النقص ، هو بعينه الناقصُ الذي لم يتمّ ، والغرورُ الذي تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء ، لعله هو الذي يُثبت أن غيرَ رأيك في الآراء هو الصحيح

ولو كان الأمر على ما يتخيّلُ كلُّ ذي خيال لصدق كلُّ إنسان فيما يزعم ، ولو صدَق كلُّ إنسان لكذَب كلُّ إنسان ؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض ، ليجيءَ حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبَر ، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنتقَص ، ويصحّ الصحيحُ مادامت الشهادةُ له ، ويفسُدَ الفاسدُ مادامت الشهادةُ عليه ، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء

قال دمنةُ وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن أرنباً سمعت العلماءَ يتكلمون في مصير هذه الدنيا ، ومتى يتأذّنُ اللهُ بانقراضها ، وكيف تكون القارعة ؛ فقالوا : إن في النجوم نجوماً مذنَّبةً لو التف ذنبُ أحدها على جِرْم أرضنا هذه لطارتْ هواءً كأنها نفخةُ النافخ ، بل أضعفُ منها كأنها زفرةُ صدر مريض . فقالت الأرنب : ما أجهلَكم أيها العلماء ! قد والله خرِفتُم وتكذّبتم ، ولا تزال الأرضُ بخير مع ذوات الأذناب ؛ والدليلُ على جهلكم هذا . — ، قالوا : وأرتهُم ذنبَها ... !

قال كليلة : وكم من مغرور يُنزل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء ؛ فيقول : « كذَبوا وصدَقتُ أنا ، وأخطئوا جميعاً وأصبتُ ، والتبس عليهم وانكشف لي ، وهم زعموا وأنا المستيقن . » ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاء من هنةٍ تتحرّك في ذنبها . وكان يُقال : إنه لا يجاهرُ بالكفر في قوم إلا رجلٌ هان عليهم فلم يعبأوا به ؛ فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم ، فهو الأعزُّ الطاغية . ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادةُ حمقه ، وهذا يخشونه فيتركون معارضته وعليه شهادةُ ظلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا . وقالت العلماء : إن كنتَ حاكماً تشنق من يخالفك في الرأي ، فليس في رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنتَ تقتل مَن ينكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر ، ففيك عقلٌ اسمه الجدار . أما إن كنتَ تناظر وتجادل ، وتُقنع وتقتنع ، وتدعو الناس على بصيرة ، ولا تأخذُهم بالعمى — ففيك العقلُ الذي اسمه العقل

* * *

قال كليلة : وأنا يادمنة ، فلو كنت قائداً مطاعاً ، وأميراً متبعاً ، لا يُعصى لي أمر ، ولا يرَد عليّ رأي ، ولا ينكر مني ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين : أصبتَ أصبت ؛ ولا يلقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى ، رهبة من سخطي رهبةَ الجبناء ، أو رغبة في رضاي رغبةَ المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد خلص لي باطنهم جميعاً ، وصحت نياتُهم كلها — فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالني تقحمهم إلى نقص العقل بعد كماله ، وردّتني فسولتُهم إلى فسولة الرأي بعد جودته ، فأخلق بي أن أعتبر وضعهم إياي في موضع الآلهة هو إنزالهم إياي في منزلة الشياطين ، وإلا كنتُ حقيقاً أن يصيبني ما أصاب العنز التي زعموا لها أنها أنثى الفيل . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان في إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء ، وكان فيها عضرفوطٌ كبير(١) فملّكته الجماعةُ وذهبت تأتمِرُ من أمره وتنتهي . فمرّ بهذه الخربة فيلٌ جسيمٌ

(١) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي يعمد اليه حين يريد تقدير المعاني بالتمثيل والمحاورة (الرسالة)

(١) العظاء : جمع عظاءة وعظاية ، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية) ، والعضرفوط ضرب من العظاء يكون أكبر منها

من الفيلة ، لم يحس بالعظاء ، ولم يميز فرقاً بين هذه الأمة وبين الحصى منثوراً يلتمع في الأرض هنا وهنــــا ؛ فنظر العضرفوط كيف يصنع به ، وكان قائداً عظيماً ، ثم تدبّر أمر الفيل ، فرآه لا يتحرك إلا بأقدامه ينقلها واحدة واحدة ؛ فقدّر عند نفسه أنه لو أزال قدم الفيل عن الأرض زال الفيل نفسه ؛ فجاء فاعترض الطريق ، ودبّ دبيبه إلى قدم الفيل ؛ فلما رفع الفيل قدمه احتبل هذه الغفلة منه ... واندسّ تحتها ، فاندسّ مقبوراً في التراب ! ثم إن العظاء افتقدت أميرها . فلما مضى الفيــل لسبيله ، ورأت ما نزل بها تفرّقت إلى أحجارها واستكنّت فيها ترتقب وتتربّص ؛ فدخلت إلى الخربة عنز جعلت تتقمم منها وترتع فيها ، ورأتها العظاء فاجتمعن يأتمرن ..

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألت عظاية منهن : وأين النابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إن الإناث دون الذكورة في خلقها ، والأنثى هي الذكر مقلوباً أو مختصراً أو مشوّهاً ، ولذلك هن يقلبن الحياة أو يختصرنها أو يشوّهنها . أفلا ترين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه . . . . ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولك في الرأي فأين الخرطوم ؟

قالت الأخرى : هو هذه الزّنمة المتدلية من حلقها ، وهو خرطوم على قدر أنوثة الأنثى . . . !

قالوا ؛ ثم اجتمع رأيهن على أن يملّكن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهبن لها الخربة وأمتها . وسمعت الماعزة كلامهن فقالت : لا جرم أن تكون العنز فيلة في أمة من العظاء ، فقد قالت العلماء : إنه لا كبير إلا بصغير ، ولا قوي إلا بضعيف ، ولا طاغية إلا بذليل ؛ وإن العظمة إن هي إلا شهادة الحقارة على نفسها ، وإنه رب عظيم طاغية متجبر ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب ، ولا حكم إلا كما يحكم الخداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده ، فتى جاءت إليه فقد جاءت ، وإذا أدبرت عنه من ناحية رجعت من ناحية أخرى ، ليثبت الحظ أنه الحظ

وتقدّم العظاء إلى العنز ، فقلن لها : أيتها الفيلة العظيمة ، إن قرينك العظيم قد مسّ أميرنا العضرفوط بقدمه فغيّبه تحت سبع أرضين ، وإننا قد اخترناك ملكة علينا ، ووهبنا لك الخربة وما فيها

قالت العنز : فإني أتهبُ منكن هذه الهبة ، ونعمّا صنعتن ؛ غير أن بينكن وبيني ما بين العظاية والفيل ، وما بين الحصاة والجبل ؛ فإذا أنا قلتُ ، فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرتُ ، فأنا أمرت ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلت . هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها ؛ لأن ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة ، وفي هذا الجسم قوة فيلة ، وفي الخربة كلها فيلة واحدة ؛ فلا أعرفن منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعة ، طاعة الأعمى للبصير . ألا وإن أول الحقائق أنني فيلة وأنكن عظاء ؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكن ، وقوّتي حق لأنها قوة ، وباطلي كذلك حق لأنه من قوّتي ؛ وقد قال حكماء الفيلة : إن القوي بين الضعفاء مشيئة مطلقة ، فهو مصلح حتى بالإفساد ، حكيم حتى بالحماقة ، إمام حتى بالخرافة ، عالم حتى بالجهالة ، نبي حتى بالشعوذة . . . . . !

قالوا ؛ وتنكّر عليها عظاية صالحة عالمة كانت ذات رأي ودين في قومها ، وكن يسمّينها : (العمامة) ، لبياضها وصلاحها وطهارتها ، فقالت : ولا كل هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تخرّصت غير الحق فإنك تحكمينا من أجلنا لا من أجلك ، وما قولك إلا كلمات لا يحققها إلا أعمالنا نحن ؛ فلك الطاعة فيما يصلحنا لا فيما يفسدنا ، ورأيك شيء ينبغي أن تكون معه آراؤنا ، لتتبين الأسباب أسباب الموافقة والمخالفة ، فنأخذ عن بيّنة ونترك عن بيّنة ؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة : إنه يجب على من يقدّم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به ، أو يضع لها شرعاً ليحملها عليه ، أو يسن لها سنة لتتبعها — يجب على هذا المتقدّم لتحويل الأمة وتحريرها أن يتقدّم لأهل الشورى وفي رأسه الرأي ، وفي عنقه حبل ؛ ثم يتكلّم برأيه ويبسطه ويدفع عنه ، ويجادله ويجادلونه ؛ فإن كان الرأي حقاً أخذوا الرأي ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوّر

وفى ديننا أن الطاعةَ فى المعصية معصيةٌ أخرى ؛ ولقد كان لنا عَـنْـضَرفُـوطٌ بحّـاثةٌ فى الأديان دَرّاسةٌ لـكتُـبها ؛ فكان مما علّمنا أن المخلوق مبنيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألا يتم منه شيء إلا بمقدار ، وألا تكون القوةُ فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقل التامُّ فى الأرض هو مجموعُ العقول كلّها ، وكان أتمُّ الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنها أصحُّها وأتمُّها . فلا الدينَ اتبعتِ أيتها الفيـلة ولا اتبعتِ فينا العقل

فلما سمعت العنزُ ذلك تنفّشَتْ وغضبت ، وقالت : إياكم وهذه الترَّهات من ألسنتكم ، وهذه الأباطيلَ فى عقولكم ؛ لا أسمعَنّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العَضَافيط ... فذلك وحيٌ غير وَحْيي أنا ؛ وإذا كان غير وحيي أنا فأنا لستُ فيه ، وإذ لم أكن أنا فيه فهو لا يَصْلُح للحكم الذى شرطُه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غُرَباءَ عن جعلني غريبةً عنكم ، ما بُدٌّ من إحدى الغُربتين ، فهو أوّلُ القطيعة ، والقطيعةُ أوّلُ الفساد . وما دام فى الدين أمرٌ غير أمرى ، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيى ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيّران على مشيئتى — فأنا مجنونة إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضحكت (اليمامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونة بـ . . . أنا . أفلا يجوز وأنتِ مخلوقٌ من الخلق أن يعتريَ عقلَكِ شيءٌ مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأى فى ناحية القوة ، حسَنَةُ التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزةُ المقدار فى ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادة المسرفة فى جهةٍ من العقل تأتى من النقص المتحيِّف لجهةٍ أخرى ؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تاماً عَبْقَرياً فى أمور لأنه ضعيفٌ أبلهُ فى غيرها ؛ يُحسِنُ فى تلك ما لا يُحسِنه أحد ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد ؛ ثم يغلط فى الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه ؟

قالوا : فجاشت العنزُ وفارَتْ من الغضب فورةَ الجبّار ، وخُيِّل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبتْ بين الأرض والسماء ، وأن زَنَمَتَيْها امتدّ منها خرطومٌ طويل ، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويحكم ! خذوا هذه (اليمامة) فاشنُقوها ؛ فإنها كما قالت ؛ تقدّمتْ إلينا بالرأى والجبل . . . !

وكان فى العَظَاء ضِبانٌ وَمَهازيلُ وجبناء وما كولون لكلّ آكِل ؛ فَتشَبَّحَ[1] لهم أن أنثى الفيل هـــذه . . . ستَخْلُفُهم فِيَلة إنْ هم أطاعوها ؛ فإذا تمرّدوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيث تجعل كلّ ظِلْفٍ من أظلافها جَبَلاً فوقهم كأنه ظُلّة فتسوخ بهم الأرض . ثم إنهم انخزلوا وتراجعوا وأُخِذتِ (اليمامة) الصالحة فشُنِقَتْ ، وخمد الرأيُ من بعدها وانقطع الخلافُ والدِّينُ والعقلُ الحرّ . . . ؛ وأقبلت دولةُ العَظَاء على العنز تجرّرُ أذيالها . . . .

قالوا : واغترّت الماعزة وأحسّتْ لها وجوداً لم يكن ، وعرفتْ لنفسها وهى ماعزةٌ نَباهَةَ شأن الفيل القويّ ، فَلَجّتْ فى عمايتها وكفرتْ بجنسها ، وقالت : لم يخلقنى الله فيلةً وخلقتُ نفسى ؛ فأنا لا هو . . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهها كلُّ عنزٍ فى الدنيا ؛ وذهبتْ تقلّد وتمشى على مذاهب الفيَلة بين العَظَاء ؛ فإذا مشتْ ارتجّت وتخطّرتْ كأنها بناءٌ يتقلقل ، وإذا اضطجعتْ أنذرتِ الأرضَ أن تتماسكَ لا تدُكّها بجنبها . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخراب مرّةً أخرى ، فلاذَتْ العَظَاء كلُّهن بالفيلة . . . . وتأهّبتْ هذه للقتال وتحصّفَتْ فى البارزة والناجزة . . . . والماعزة فنصبتْ قرنيها ، وحرّكتْ زَنَمَتيها ، وطأطأتْ ، وشدّتْ أظلافَها فى الأرض ، وثبّتتْ قوائمَها ، وصلّبتْ عظامها ، ونفّشتْ شعرَها ، وتَشَوّكتْ كالقنفذ ، وأصرّتْ بكل ذلك إصرارَها ؛ وكانت عنزاً نطيحةً منذ كانت تتبع أمها وتتلوها ، فكيف بها وقد تفيّلتْ . . ؟

ثم إنها ثبتتْ فى طريق الفيل ليرى بعينيه هـــذا الهولَ الهائل . . . فأقبلَ ، فمدّ خرطومَه ، فنالها به ، فلفّها فيه ، فقبضَه ، فرفعه ، فطوّحها ، فكأنما ذهبتْ فى السماء . . . !

وتهاربت العَظَاء ولُذْنَ بأجحارهن ، ثم غدَوْنَ على رزقهن فإذا جيفةُ العنز غيرَ بعيد ، فَذَبَبْنَ عليها وارتَبْنَ فيها وعلمن أنها كانت ماعزة فيّلها جنونها ، وأدركن أن الكذب على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتله ، وأن من غَلَبَ

[1] أى خيل إليهم وتمثل

أمةَ السَطاء على أمرها فليست الأيام والليالى عَطاء فيغلبها ؛ وأن تغيير المخلوقات إنما يكون بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها ، وأن الاناء الأحمر يُريك الماء مُحمراً والماء فى نفسه لا حمرة فيه ، حتى إذا انكسر الاناءُ ظهر كما هو فى نفسه ؛ وكلُّ ما يخفى الحقَّ هو كهذا الاناء : لونٌ على الحقِّ لا فيه ؛ ثم أيقنَ أن محاولة إخراج أمةٍ كاملة من نزَعات ماعزةٍ مأفونة ، هى كمحاولة استيلاد الفيل من الماعزة . . . !

* * *

قال كليلة : واعلم يا دمنة ، أنه لولا أن هذه العنز الحمقاءَ قد كفرتْ كُفْرَ الذبابة لما أخَذَها اللهُ أخْذَ الذبابة

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابةً سوداء كانت من حمْق الذِّبان ، قُدِرَتِ الحماقةُ عليها أبدية ، فلو انقلبتْ نقطةَ حبر لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخف

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيّةٍ ضخمة ، فجعلتْ تقابل بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدلِّ الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه ، وأنه مرسلٌ كيف يتفق على ما يتّفق عبثاً فى عبث ، ولا ريب أن الأنبياء قد كذَبوا الناس ؛ إذ كيف يستوى فى الحكمة خَلْق (أنا) وخَلْقُ هذه الذبابة الضخمة التى أنا فوقها . . . ؟

ثم نظرتْ ليلةً فى السماء ، فأبصرت نجومها يتلألأنَ وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندى من فوضى العالم وكذِبِ الأديان وعبثِ المصادفات ؛ فما الايمان بعيْنه ، إلا الالحاد بعينه ، ووَضْعُ العقل فى شىء هو إيجادُ الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى فى الحكمة وضع (أنا) ورفعُ هذا الذّبان الأبيض وسُمُوه الكبير إلى السماء . . . ؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلاّح ، فجعلتْ تمور فيها ذهاباً وجيئة حتى رجعتْ بقرةُ الفلاّح من مرعاها ؛ فنُبِهتِ الذبابةُ وجدّتْ على غُرّتها من أوّل النهار إلى آخره ، كأنها تزاولُ عملاً ؛ فلما أمستْ قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق فى الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد تقَبَتا ثقبين فى وجه هذه البقرة واكتنّتا فيهما تأكلان من شحمها فتسْمَنان سِمَنا ؛ والناس من جهلهم بالعلم الذُّبابىّ يسمُّونهما عينين . . . . وأنا قضيتُ اليومَ كلّه أخمِشُ وأعضُّ وألسع لأثقبَ لى ثقباً مثلهما فما انتزعتُ شعرة ؛ فهل يستوى فى الحكمة رزق (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين فى وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأت خُنْفُساء تدِبُّ دبيبها فى الأرواث والأقذار فنظرتْ إليها وقالت : هذه لا تَصْلُح دليلاً على الكفر ؛ فانى (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لى أجنحة وليس لها ، (وأنا) خفيفة وهى ثقيلة ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذُباب القرون الأُولى ذلك الذى كان بليداً لا يتحرّك ، فلم تجعل له الحركةُ جناحاً . ثم إنها أصْغَتْ فسمعتْ الخنفساءَ تقول لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يجد المخلوق أنه كما يشتهى فليكْفُر كما يشتهى ؛ ياوَيحَنا ! لِمَ لمْ نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنْفُخُه ولم نجد . . . ؟

فقالت الذبابة : إن هذا دليلُ العقل فى هذه العاقلة ، ولعمرى إنها لا تمشى متثاقلةً من أنها بطيئةٌ مُرهقةٌ بعَجزها ، ولكن من أنها وقورٌ مثقلةٌ بأفكارها ، وهى الدليل على أنى (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة . . . !

وجعلت الذبابةُ لا يُسمَعُ من دندنتها إلا : أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . . . من كُفْرٍ إلى كفرٍ غيره ، إلى كفر غيرهما ؛ حتى كأن السماوات كلّها أصبحتْ فى معركةٍ مع ذبابة ....

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الالحاد الأحمق تسيِ سَمتَها ؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتها نفسها ، فوقفت تحكُّ ذراعها بذراعها — دنت بَطّةٌ صغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس ؛ فمدّتْ منقارَها ، فالتقطتها . ولما انطبق المنقارُ عليها قالت : آمنتُ أنه لا إلـه إلا الذى خلق البطة . . . . !!؟

(طنطا)

إلى (.....) المجهولة :

اشكرك ياسيدتى ، وكل ما صنعته فهو خير ما كنت صانعة . وسأكتب إن شاء الله فى موضوعك بعد فترة من الزمن ، ولكن إياك والخاطر الذى خطر لك فانك تربحين به عثرة ، وتخسرين عثرات . . . . الرافعى